أحمد عبد الله حامد

أنشودة السقوط

لن نحكي حكايةً او رواية ،
لكنها الحقائقُ وآلام الضائعين .
فهل نحرك منكم ساكنا ؟
نحن نناشدكم ان تفتشوا دائما ،
لتتبينوا حقيقة الداء ، بدلا من هذه الغفلة .
وعندئذٍ لن يستعصي دواء .
نحن نناشدكم قبل ان تفقد الانسانيةُ انسانيتها ،
لنتحول من آدميين الى اي شيء آخر .

المنظر : ذلك الانسان ، في القرن العشرين . واقف على حافة النهر . الريح تزمجر احيانا، ونقيق الضفادع يؤدي لحنا رتيبا. الوقت مساء. هو شاب من الغالبية اليائسة. والشرطي العجوز الطيب يلوح قادما عن بعد .

الشاب : فعلا . فعلا . انا لم اعد احتمل كل ذلك العبث البغيض . واخيرا قررت .

الشرطي : (من بعيد) من هناك ؟ هيه . الا تسمع ؟

الشاب : (مستمرا) ربما كان هناك متسع لامثالي. كثيرون امثالي. بل لا بد ان يكون هناك المتسع المرجوّ .

الشرطي : (مقتربا) يبدو انه لا يسمع ، ذلك الواقف على حافة النهر. لعلها قصيدة يستلهم آخر ابياتها . هيه . انت ، هناك .

الشاب : من ؟ انا ؟

الشرطي : على اية حال، لا يوجد معنا الآن ثالث يمكن ان اناديه . ما وقوفك هكذا على حافة النهر في ساعة متأخرة ؟

الشاب : انما اطلب الخلاص . وهذا بالتأكيد امر لا يعنيك .

الشرطي : يا الله . الخلاص؟ يبدو ان الأمر جد خطير . ولكن ممّ تطلب الخلاص ؟

الشاب : من كل شيء ، فانا لم اعد احتمل .

الشرطي : لم تعد تحتمل ماذا ؟ حسبتك في بادىء الامر شاعرا ، او على الاقل

عاشقا مهووسا في وقفتك هذه .

الشاب : ابدا . لن احتمل بحال .

الشرطي : حسن . ومن اجل ذلك تطلب الخلاص. ولكن كم عمرك ايها الشاب الذي فقد الرجاء هكذا ولم يعد يحتمل ؟

الشاب: سبعة وعشرون. وعندها، آن لي ان اطلب الخلاص. فقد احتملت الكفاية.

الشرطي : كلا ، كلا، يا بني الطيب. لا ينبغي ان يكون هذا سن اليأس . كما انه ليس هكذا تعالج الامور ، ايها الشاب . بالتأكيد هذه افكار حمقاء ، وان كانت ترتسم على تجاعيد وجهك آثار مأساة مشحونة .

الشاب : ربما كان في الخلاص راحة لامثالي ، بدليل ان احدا لم يعد الينا فاراً من عالم الموتى ينشد الخلاص في عالمنا هذا ، عالمنا البغيض .

الشرطي : اوه ! انت تتحدث بطريقة غريبة ، كما لو كنت تحمل عبء مأساة جيل باكمله. ولكني اعلم يقينا — من قراءاتي في الكتب السماوية —ان الانتحار عمل غير مشروع.

الشاب : وليس من حل سواه لايقاف المهزلة التي تضج بها ايامي وسط ركب الضائعين.

الشرطي : يا للدرك المشؤوم ! ولكن لا بأس، فلم يبقَ سوى يومين لاترك هذه المنطقة نهائيا ، مبتعدا عن هذا النهر البغيض ورائحة الجثث الكريهة التي تزكم انفي . ففي كل امسية يأتي انسان : كانوا قديما من الشعراء ، واليوم واحد من الغالبية اليائسة التي لم يعد لها رجاء ، التي تلقي بهمومها في احضان هذا النهر ثم لا تلبث ان تختفي نهائيا من الوجود . غريب امر هؤلاء الناس ، بل ومفزع ايضا . نعم . نعم . لشد ما هو مفزع في كل ليلة .

الشاب : هكذا عندما تعجز كل الحلول ويصبح الخلاص من هذه الحياة حلا مغريا ووحيدا.

الشرطي : ولكني لم اعد افهم . بحق الشيطان ، اي انشودة شريرة تحوم حولكم ايها الصغار الناشئون في العقد الثالث من العمر ثم لا تستطيعون منها فكاكا الا بهذا الموت البغيض ؟ لشد ما ترتعد فرائصي .

الشاب : يقفز المرء في الماء بعد ان كان يقف على حافته ، يرهقه يأس مرير . وهكذا تنتهي الحياة ويذهب كل شيء بلا رجعة .

الشرطي : اللهم الا بضع فقاقيع ودوائر فوق سطح الماء . ثم لا شيء . النهر ماض في انسيابه ، وزحام النهار يبهر الانفاس . كما ان ساعة واحدة لن تتوقف عن المسير ليصبح الانسان منسيا مهملا كأن لم يكن ذات مرة .

الشاب : لكن رائحة الجثث الكريهة ستحكي يقينا مأساة الوف الهاربين من بني البشر الى الاعماق حيث العدم .

الشرطي : يا الهنا العظيم ! اي روح خبيثة تحط كالكابوس لتهدد امان البشرية ؟ رفقا

بالضعفاء ، فهم يقتلون انفسهم وما من رقيب . ايها الشاب ، يجب ان امنعك عن هذه الفعلة . فانت بانتحارك انما ترتكب جرما ، وقوانيننا بالطبع تعاقب المجرمين .

الشاب : اية قوانين ؟

الشرطي : تماما كما لو كنت تقتل انسانا آخر . ولكن اسمع ، بل اصغ اليّ جيدا ، ايها الناشىء الابله. ماذا يمنعك من ان تحاول مرة اخرى ؟ لا بل مرات، فانت كما تقول لم تتعدّ السابعة والعشرين ، وللطريق دائما بقية .

الشاب : هراء . لا يمكن ان استمع اليه. والآن دعني. فانا ماضٍ الى حيث لايستطيع احد منهم اللحاق بي ، هناك في القاع .

الشرطي : هيه ! يبدو انك هارب من بعضهم ؟

الشاب : كلهم .

الشرطي : من ؟

الشاب : الجبناء .

الشرطي : اي جبناء تقصد ؟

الشاب : كلهم ، والابتسامة الزائفة ترتجف على شفاههم في تحدٍ ممجوج ، حيث يقتل المرء ببساطة انسانا آخر ، مثله ، غير دارٍ بذلك وسط مشاغله اليومية .

الشرطي : كان الناس قديما يحبون بعضهم بعضا وربما لم يعرفوا القتل ابدا .

الشاب : هل حقا ؟ ترى في اي عصر ؟ ليس غريبا ان يمضي الجناة والمزيفون على شاطىء هذا النهر باحثين عن اللهو غير عابئين حتى بجثث ضحاياهم ، فهم واثقون انهم ذهبوا ولن يعودوا . آه ، غير عابئين .

الشرطي : لكني ارى ان الحياة تسير، ومن الحمق ان نهرب من ركابها طائعين مولولين، خاصة اذا ما كان الانسان في العقد الثالث .

الشاب : انسان العقد الثالث في القرن العشرين كهل تثقله افكار رهيبة .

الشرطي : كلا ، ابدا . اذكر وانا في مثل سنك حين كنت اداعب اطفالي . ولكن حقا ، انت كيف تترك اطفالك ايها المتمرد ؟

الشاب : اطفالي ؟ لا ، ليس في الوجود شيء بهذا الاسم . كما انني شخصيا لا يمكن ان اسمح للمأساة ان تتكرر ، ان يجيء الى هذا العالم انسان آخر وانا السبب . لا ، لست حتى سببا . كما يسودني اعتقاد اكيد اننا نسير الى الوراء .

الشرطي : ماذا؟ كلا. كان لا ينبغي ان تجيبني على هذا النحو، انت ايها الشيء الكافر.

الشاب : ما من داعٍ لان تغضب مني ، فالحق اقول ؛ ولكني ايضا ماضٍ هناك ، في القاع ، حيث العدم ولا وجود للجناة المزيفين او غد معتم يتربص بالصغار .

الشرطي : ايها الانسان المنبوذ ، كما لو كنت تنتمي الى شرذمة الضالين من نسل آدم ، ممن يسلكون الطرق الملتوية في هذه الحياة ثم يتفلسفون .

الشاب : حذار من الفلسفة. حاول المعلم يوما ان يطلعني على الكتب ، ربما كل الكتب ؛ فقرأت وقرأت ، اكثر مما تحتمل طاقة الانسان . ثم حاولت مناقشة رجل الدين ؛ ذهبت اليه في صومعته لاهثا ، ابحث عن الحقيقة. تكهرب الموقف والجدال طويل ، ليعلن الرجل اخيرا استحالة المناقشة مع امثالي . ثم عدت وقد ازددت ضياعا وحيرة . غير ان خالي ، وهو شيخ مرموق ، صلى من اجلي كثيرا . وبعد فهم يفتشون عن اللامعقول . الويل للصغار !

الشرطي : بل الويل كل الويل لكم انتم ، ايها الضعفاء الذين تهربون الى القاع تولولون . الويل للصغار ! وهكذا تضيع الحقيقة .

الشاب : لا . لم يعد هناك مجال في هذا العالم لشيء اسمه الحقيقة ، رغم ترديدها بمعنى او بآخر في معظم كتاباتنا ، بل وفي الكتب المقدسة . تلك هي الحقيقة .

الشرطي : ومن اجل ذلك يتحول الشاب الى كهل يسعى الى حتفه بقدميه. يا للمرارة في حلقي ! ولكن ، حسن . دعني وشأني ، فليس لي ان ادافع عن قضيتكم ، كما انه ليس لك ان تستدرجني هكذا في لباقة . والا يا ولدي فلن تتفتح اكمام الزهور ابدا ، ولن تهطل امطار حتى للرعاة ، وتعمّ الوجوه بلادة رهيبة . فالعالم تسوده رائحة واحدة لا تتغير . ذلك الباطل العفن يحفر التعاسة على محيا الصغار الابرياء .

الشاب : شيء اسمه المال باعوا من اجله كل شيء ، لان شبح الفقر ثقيل ولونه الرمادي الداكن كبشرة خنزير عجوز يحيل طموح المرء الى استسلام مقيت . ذلك الفقر ، لشد ما ابغضه ، فهو يهلهل في شراسة آدمية الانسان .

الشرطي : كان الناس قديما يتحلون بالقناعة ، فهي كنز .

الشاب : والمتطلعون ابدا الى مستقبل افضل ؟

الشرطي : كثيرون من عباقرة هذا العالم عاشوا جزءا طويلا من حياتهم في فقر مدقع.

الشاب : هلا عرفت بالله كيف عاشوا ؟ او حتى تصورت ما يمكن ان يعانيه آدمي بسيط اعزل ازاء وحش خبيث كهذا يعترض طريقه في قسوة كالجحيم ليحول دونه وغاياته واحلامه ؟ اي عناية سماوية نفتقر اليها في هذا العالم ، والا فالمصير حتما الى خراب . نعم ، خراب . ولا تجديد حيث لا مكان للفنانين ولا ثمار ترجى ، فالتربة ترويها دماء الضائعين .

الشرطي : في محبة المال احيانا تكمن كل الشرور . هذا المال ...

الشاب : كنا صديقين لطيفين ، جمعتنا طفولة فقيرة متطلعة. لكن الموت اختطف اباه فجأة ليبدأ الفتى منذ فجر صباه حياة قلقة يهددها التشريد . غير ان اكبر اخوته كان اقسى عليهم من الموت الذي اختطف امانهم . فعرفنا الدموع ونحن في بداية العقد الثاني من

العمر . كان علينا ان نتكاتف في صلابة لتمر العاصفة دون ان يفقد صديقي الرجاء في مستهل حياته . في لحظة ضياع يعرف الطريق الى النهر ، ليتحول في ثوانٍ الى جثة . ثم ، لا شيء . وجاءت الفلسفة ، وحوّلنا دموعنا بها الى بسمات ساخرة ، وعبأتنا الآلام بشحنات من الاصرار رغم كل شيء ، بمزيد من الاصرار . فقد قال احدهم يوما ان لا مستحيل تحت الشمس ، وكنا في حكم المفتشين عن المستحيل دون ان نملك حتى شمعة نهتدي على بصيصها الى مسالك الطريق . وسرنا على الدرب سويا فقيرين ، ولكننا على الطريق ؛ وكنت انا عصاه التي يتكىء عليها كلما فاجأه عطب يهدد كيانه . كنا نحلم ونحن صغار ، وحين كبرنا بدأنا نخطط ، اذ لا بد من مستقبل افضل . وسرعان ما تحققت احلام اليتيم ، فمن المرجح انه لم يكن يطمع في اكثر من الامان . وعندها بدأ يعرف طعم الراحة . الطريق طويل ومعتم ، محفوف بالكلاب الضالة ، الا مني : فقد كنت انا عصاه . ولكن لا بأس ، فقد وصل هو الى بر الامان . وفجأة القاني المجنون من يده . هكذا ، فجأة ، وبلا اسباب . فقد تعودنا الا نبرر للآخرين بعضا من تصرفاتنا الخاصة . وفجأة وجدتني وحيدا . والطريق طويل ومعتم ، محفوف بالكلاب الضالة . ووجدتني وحيدا . تنكر لي اخي الانسان ، وعرف الطريق الى المال ، اصل الشرور . تحول الصغير الخبيث فجأة الى داهية يعرف كيف يحرص على مصالحه فقط . مصالحه هو ربما كانت حياته . مرض المسكين بحب الذات رغما عنه وتخلى عن كل شيء ، حتى صداقتنا والذكريات . الطريق ما زال امامي طويلا طويلا ومعتما ، تحفه الكلاب الضالة . وهاأنذا في مسيس الحاجة الى عصا اتكىء عليها لاواصل المسير . ولكن اللئيم مزقني ، ربما عن غير قصد ، فقد مرض بحب الذات واصبح محتما عليّ ان اكمل الطريق وحدي ، الا من كلاب ضالة متحفزة دائما وعصابة سوداء تكاد تزهق انفاسي . وانا يا سيدي انسان ضعيف ، والا فانا جماد محروم حتى من نعمة الاحساس . لا . لا . بحالٍ لن اطيق .

الشرطي : وكيف الرجوع اذاً عن الطريق ؟ بحق الشيطان ، يبدو انهم ارغموك فعلا على القرار البغيض ، انت ايها الانسان المسكين .

الشاب : هناك في القاع موت وعدم ، ولا سخافات .

الشرطي : لكنا يا ولدي نختصر حياتنا على هذه الصورة .

الشاب : لا حياة مع اليأس ، والطريق الى النهر مغرٍ كأنما تحفه الفوانيس من كل جانب . النهاية دائما واحدة : موت مقيم . لكن الطرق عديدة . ويبدو انه من الذكاء احيانا ، بل الافضل فعلا ، ان يختصر الانسان الطريق .

الشرطي : البعض يختصرونه بالادمان .

الشاب : الادمان ؟ اوه ، نعم ، ذلك المخدر الساحر . موت بطيء ولذيذ ، يعرف

كيف يغسل هموم المرء مؤقتا . نعم ، نعم ، كنت اهرب اليه من المجانين والكلاب الضالة حيث لا امان ، وانسان يتنكر فجأة لاخيه الانسان ، ولا اسباب . وفي الليل ، في كل ليل ، يأتي المخدر ، وهروب من الواقع الى الم في النفس دفين. وكل المجانين يغفلون عن عمد غريب ان الطريق ستؤدي بهم حتما الى نهاية واحدة : موت مقيم ... ولا تجديد حيث لا مكان للفنانين حتى لو كانوا من الحضيض او اولاد الحرام. ففي براءة الطفولة متسع للجميع. لكن احساسات المرء حين يعرف كيف يترجمها لتخدم الضالين من العالمين لها ثمن وحيد : خلود لا يريم... مساء الفل، وذي عينين جاحظتين وسط وجه شاحب يعجز عن ترجمة خطوط الكثيرين ، يدور على الجالسين . السم بطيء ، ولكن مفعول السحر اكيد . وفي عالم السموم لا خفير ولا امير، فالكل يغلفه ضياع مهين. وانا يا سيدي لم اعد اطيق. ابدا لم اعد اطيق ... والفنانون —

الشرطي : لكن الارض تبدو مليئة بالفنانين .

الشاب : بل المنكوبين ، من فضلك . لا مجال للحقيقة . لكن صروح الدعارة تعلو وترتفع ، فاي ثمرة ترجى والتربة ترويها دماء الضائعين ؟

الشرطي : منذ القدم والفن هو طريق البشرية الى الكمال .

الشاب : وحيث يتآمر المتغطرسون في غير ما رحمة تسود شريعة الغاب . واذاً فلا مجال للانسانية او طريق الكمال . فهم بالطبع متغطرسون غافلون حتى عن جريمتهم.

الشرطي : الا سحقاً للمجانين ،ينزعون عن انفسهم رداء الآدمية .

الشاب : ابداً قانون الغاب ، ولا تجديد . فملايين المظلومين بالطبع لا يصلحون للتشريع ، والسيادة للقوي . حين يسرق الضعيف خبزه مرغما او يموت ، تزأر الجموع في همجية. وتقطع يد السارق تماما كما يكتنز القوي. لتهلل كل الوحوش والبهائم حتى الديدان دون ان تجرؤ حتى على السؤال لماذا هي تهلل هكذا . والفقراء ابدا يخرسون ، و آلافهم بلا اذرع .

الشرطي : كما لو كانوا يغفلون اي طريق اختاروه واي خراب .

الشاب : الغلبة دائما للقوي . وعندئذ تموت شعوب باسرها او تؤول للتشريد . ورغم ان الاطفال يولولون في العراء او تحت رصيف مزدحم بصوت مسموع ، الا ان الآخرين بالطبع متغطرسون . ولا مجال لاقلام تعرقل سير الجريمة ، فقد شغلتها عمليات التزييف . والفقراء ابدا لا يفهمون ، او هكذا يبدو الواحد منهم . لكن الطريق الى النهر ترفرف عليه اعلام حزينة منكسة ، يمضي من تحتها المنهكون ، يزحفون ، بعد ان تصوروا ان رائحة الجثث المنبعثة كفيلة بان تحرك يوما انوف المتغطرسين .

الشرطي : يا للعواطف النبيلة تندثر من هذا العالم .

الشاب : وهذا الركب يئن في طريقه الى العدم ، يشيعه مارش الجلادين ، يا اصدقاء ، ينبعث متخاذلا من حشرجات الضائعين . فغير مسموح للفرق الموسيقية الا بتشييع الجنازات الفاخرة .

الشرطي : يا الهي ، ينبغي الا تنطفىء المصابيح هكذا على كل الطرق ، فالظلام يطبق على العالم . يطبق تماما .

الشاب : الا طريق النهر ، فهو مضيء . يا للخيبة ، كما لو كان محتما ان نمضي اليه دون ان ننظر حتى الى الخلف لحظة . فالظلمة مطبقة . حين يطلب منا ان نعيش ينبغي ان تضاء بعض المصابيح على الطرق ، والا ففي الحساب عبث ثقيل .

الشرطي : لا يا ولدي . لا ، ليس هكذا من فضلك .

الشاب : آسف ايها العجوز الطيب . كان لا ينبغي ان يعيش المرء في رعدة دائمة من هذا العالم المجنون . ولذا جئت انشد الخلاص في العدم . اريد اخيرا ان استريح ، فقد انهكتني ايامي التي عشتها بما فيه الكفاية . واخيرا اريد ان انام . انام حياتي بطولها ، فقط في سلام .

الشرطي : تريد ان تحرق بالنوم ما تبقى من ايامك ؟

الشاب : اهرب من الالم ، وذلك الضجيج يصم اذني ليل نهار بلا هوادة . والآخرون يعيشون في اكذوبة كبيرة علنية .

الشرطي : ابداً . بالنوم لن يحقق المرء شيئا . كما ان الامور تموت بموت صاحبها .

الشاب : لكن الاكذوبة تعيش كما لو كانوا يهيئونها للخلود . ويتسابق اللئام لرفع الاعمدة . فهم بالطبع غلاظ . واذاً فلا مجال للضعفاء او المنهكين . وبدلا من ان يرسف المرء في اغلال الجمود الاضطراري ، او يتحول تلقائيا الى قطعة شطرنج ضعيفة صماء يحركها قدر مزعوم ، فضلت ان آتي الى النهر لانام فيه في اليقين بفردي . انام الى الابد بمحض ارادتي . ولكن لا تولول ايها العجوز الطيب ، او تذرف الدموع ، فالآخرون ابدا لا يعرفون ، او هم يتظاهرون بالحزن احيانا ، ثم في المساء ينامون — تماما كما تنام انت ، دون اي حرج . ومع اليوم الجديد يتثاءبون ، ليبدوأ بذقون حليقة لامعة وعطور تقي انوفهم شر الرياح المنبعثة من النهر . لكن الامر في غاية البساطة . من هنا الى اسفل . بلمب ، ثم القاع . انتهى .

الشرطي : كلا . كلا . فلن تكون هذه ابداً وسيلة العلاج . ولكنا سنسير ، انا وانت ، على الطريق ، رغم الظلمة وعبث العابثين . نحكي قصتنا للجموع . نسأل فلاسفة الارض وحكماءها . فالعالم في حاجة الى النور . مزيدا من التغيير لازالة الصدأ . والذين ينشدون النور ابداً لا ينبغي ان تفزعهم السحب هكذا . هيا يا ولدي . هيا . فانا ارتعد من هذه النهاية البغيضة .